

نحو الفقد

محمد أحمد محجوب



قسم التأليف والنشر

جامعة الخرطوم

١٩٧٥

72-982526 Mahjub.

Mahjub, Muhammad Ahmad.

Nahwa al-Ghad.

Khartoum: Jamiat
al-Khartum, Qism al-Talif
wa-al-Nashr, 1970.

LOC : PS 7846.A47 N3 Arab

الحركة الفكرية في السودان

إلى أين يجب أن تتجه (١)

في كل الأماكن والعصور منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا وإلى الأبد فكر وسيفكر المتازون وأصحاب الثقافة الحقة من أبناء البشر في إيجاد مثل أعلى، تسخر في سبيل الوصول إليه جهود بني الإنسان ويرفع في سبيل تحقيقه مستوى الحياة ويعظم في نظر الناس غرض الوجود . وفي كل فرع من فروع الحياة ولكل مذهب من المذاهب الثقافية أنصاره المخلصون المتفانون الذين يبذلون كل ما في وسعهم للوصول إلى نتائج ترى الدهماء من أتباعهم تحقيقها غير ميسور ان لم يكن من المستحيلات . ولو لم يوجد اولئك المخلصون أصحاب المثل العليا لما تقدمت الفنون والآداب خطوة عما عرفت به في زمن من الأزمان، لأن الحياة البشرية بطبيعتها تخاف المخاطر وتحاشاها وميالة إلى ما وجد الناس عليه آباءهم عدوة كل تغيير يطرأ على الأفكار والأعمال . ولربما بقيت الدنيا في حالة من الركود لامناص من البقاء عليها لولا ظهور حفنة من الموهوبين أصحاب المثل العليا المخلصين المتفانين الذين يتفخون في الصور ويدفعون بالناس صوب المرمى الذي يجب أن يصله أمثالهم من الموهوبين ، ذلك المرمى الذي يتخيلونه ويجزمون بضرورته لهم ولبنى الإنسان ولا يعدمون من الصبر والجلد وقوة الإيمان ما يجعلهم يثقون في النصر النهائي .

تتم الحياة المثلى للإنسان في حياته كفرد وفي حياته ضمن المجموعة التي تربطه بها علاقات الوطن والدم والدين والغرض المشترك والأفراح العامة والآلام المتجاوبة . وهذه الحياة المثلى ينبغي أن تعطى حقتها من العناية عند الفرد والجماعة في جميع فروعها وشعابها، فالحياة المادية لها نصيبها، والحياة الفكرية لها نصيبها. وأغراض بني الإنسان إتصلت في العهد الأخير إتصلاً وثيقاً جعل رفاهية الفرد لا تتعارض فقط مع رفاهية الفرد الآخر بل ومع رفاهية المجموعة وسلامتها . فقطعة الحلوى في يد الطفل الالهي يحرم منها زميله البائس :

١ نشر هذا البحث في شكل كتيب في ١٩٤١

والدار الجميلة التصميم الوثيرة الأثاث الفخمة الرياض بقطنها البليد الطبع الميت الإحساس العديم الأريحية، بينما الشاعر الرقيق الحواشي والبليل الغرد وصاحب القيثارة الذي يكاد ييوح بأسرار الكون لا يجد الكوخ الحقير ناهيك عن التعميم المقيم . وهذا التعارض البغيض أكثر وضوحاً في علاقة الأمم بعضها ببعض منه في علاقة الفرد بالفرد . ولكن في عالم الثقافة ودنيا الفكر ونشاط الذهن لكشف الستار عن حقائق جديدة وإستنباط آراء مبتكرة للتسامي بالإنسانية لا يوجد ولا يمكن أن يوجد مثل هذا التناحر، فبشرى لبني الإنسان بهذه السعادة يجدونها في عالم الثقافة والفكر حيث يحلو لهم خلق المثل الأعلى والتسامي للوصول إليه، تثنى منهم أجيال تلو أجيال ومثلهم الأعلى متجدد ونشاطهم لتحقيقه يتجدد ويقوى . من السهل أن تتخيل وضعاً من الأوضاع يستوى فيه نصب كل الأجناس والأمم والاسر والأفراد في الثقافة والعدل والأريحية والإعتبار . ولكن ذلك الوضع لا يتحقق إلا إذا كان الأشخاص والأمم والأجناس التي وهبها الله في وقت ما ميزة في العقل والخلق تمكنها من تكييف مصير الآخرين وتكون رسالتها في الحياة أن تفيض على جيرانها من طلاب ومستضعفين خير ماعندها من ثقافة وعلم وثروة بقصد إشادة أعلى المثل الأخلاقية والفكرية والمادية لبني الإنسان .

ولكن تعاليم الصفوة المختارة وأريحياتها لا تثمر إلا إذا بلغ كل الأفراد مستوى عالياً من التبل، لأن بعض الأفراد بحكم تأثرهم بما خلفته أجيال ماضية من الجهل والحماقة أو لما عندهم من غريزة الشر المتمكنة من نفوسهم لا ينفعمهم التعليم الشريف الغرض، وكل جهد لإصلاحهم ضائع . وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟ كما إن هنالك طبقة الرجعيين الجامدين الذين لا يقبلون المستحدث من الآراء وإن كان الحق، ولا يسرون مع القافلة إلا إذا رأوا أنفسهم منفردين في صحراء الحياة . كما أن هناك أصحاب الأغراض الذين عميت بصائرهم وزغبوا في أن تستمر الحال على ما هي عليه حتى لا يفقدون ماعندهم من سلطان وإن كان زائفاً ولا يعدمون ما يدر عليهم من ثروة وإن كانت من غير وجه شرعي . لا بد أن يبلى المصلحون في كل زمان ومكان وفي كل فرع من فروع الحياة المادية والفكرية بأمثال هؤلاء، ولا بد من أن تقوم في وجههم المعارضة المغرضة . مثل هذه المعارضة المغرضة وشيكة أن تزول في وجه المخلصين المتفانين من أصحاب المثل العليا الذين لا يبدأ لهم بال إذا عملوا على الوصول بالإنسانية إلى الكمال المنشود ، لأن النضال والنصر النهائي في معركة بين النور والظلام والحق والباطل ، بين التقدم والقضاء يتوقف على حمية وإخلاص زعماء النهوض والتجديد لاعلى عناد دعاة الجمود والتخاذل .

لا يعرف المثل الأعلى التوسط ولا بد فيه من الكمال . وليس في ذلك من خيال ولا جرى وراء السراب . كل ما في الأمر إختلاف بين اناس لا يهتمهم من الحياة غير شهواتهم الذاتية من مأكول ومشرب وملبس ومتعة نفس واناس يرون ان الحياة لا قيمة لها اذا أنفقت فترتها القصيرة في السعي وراء المسرات الطروقة العادية ، ذلك السعي الذي يولده الجهل والحق والغناء تلك التي لا يسعها أن تتصور الحياة سلسلة متصلة يحمي الأحياء وتبقى وتموت الأجسام الفانية وتبقى ثروتها للأجيال القادمة . ولهذا يعمل دعاة الإصلاح وعباد المثل الأعلى يضعون من الخطط والآراء ما لا يمكن تحقيقه في حياتهم ولكن لا بد من تحقيقه مابقيت الحياة ، يعممون العلم والمعرفة من غير تفضيل بين الطبقات والبلدان والأجناس . وتقدم العلم والمعرفة يضعف العصبية والتناحر بين الأفراد والجماعات ويزيل الفوارق وسوء التفاهم ويمهد الطريق لتبادل الثقة والإعتبار .

ذلك شأن المصلحين والمخلصين المتفانين من دعاة المثل الأعلى في كل الأماكن والأزمان ، ولا تريب علينا من أن نكون منهم لحظة ونضع المثل الأعلى للحياة الفكرية التي نريدها لهذه البلاد الناشئة . ولا أدعي في ذلك أنني من أولئك الموهوبين الذين تتكشف لهم حجب العصور ويطوون الزمان القهقري ويرون ما كانت عليه الأمم وما صادفته في حياتها الفكرية من نجاح وفشل ثم ينظرون إلى المستقبل البعيد ويكشفون عن غيبه وما يتطلبه من آراء وأعمال ويضعون أصدق مثل أعلى للحياة الفكرية في بلادهم، فذلك شرف ليس لي إليه من سبيل . غير أنني سأحاول جهد المقل دراسة ماضي هذه الأمة وحاضرها ودراسة ماضي ما عرفت من الأمم وحاضرها ثم بعد ذلك أحاول توجيه الحركة الفكرية في بلادنا صوب ما أراه المثل الأعلى، فإن وقعت فذاك ما ابغى وإن فشلت فليكن عزائي أن هذه الأمة لن تعلم من أبنائها من يقوم لإعوجاجي ويصلح أخطائي ويقدم لنا مثلنا الأعلى الذي ستكاتف جميعاً على تحقيقه :

وَدَعُوا هَذَا الْهِنَاءَ	وَاسْتَجِيبُوا لِلنَّدَاءِ
ذَلِكَ الْمَجْدِ يَعَادُ	بِجَهْدٍ وَعِنَاءِ
نَحْنُ لِلْأَوْطَانِ بَنِي وَنَعِيدُ	سَالِفِ الْعِزَّةِ وَالْمَجْدِ التَّلِيدِ
وَحَيَاةٍ لَيْسَ تَبْنِيهَا الْجُهْدُ	لِحَيَاةٍ أَوْدَعَتْ رَهْنِ الْقَيْدِ

فَتَعَالَوْا بِنْتِدَى هَذَا الْبِنَاءِ

إنه وإن كانت الطبيعة البشرية يندر أن تختلف كثيراً إلا أن إختلاف الزمان والمكان والنباتات قمين بان يعطى كل أمة طابعاً خاصاً يميزها عن بقية الأمم في مناحى تفكيرها وإنجازاتها وبالتالي في إنتاجها المادى والفكرى . والسودان ككل بلاد الله له ماضيه البعيد والقريب وله حاضره كما له مستقبله . وسودان اليوم تراث أجيال متعاقبة من الوراثة والإختلاط ، كما ان سودان المستقبل سيتأثر بمخلفات ذلك الماضى وتراث هذا الحاضر .

سكان هذه البلاد الأصليون هم السود أو الزنوج ولكن السودان من قديم الزمان كان قبلة كثير من الشعوب التى هاجرت إليه من عرب الحجاز واليمن وسكان آسيا ومن الأمم المجاورة كالحبشة ومصر وبربر وبلاد المغرب واختلطوا بأهله بعض الإختلاط وامتزجوا بهم إلى حد ما ، « وهاجرت إليه بعد الفتح الإسلامى قبائل عربية حجازية ومنية ومغربية وسادت أهله الأصليين وامتزجت بهم بالزواج فكسب الوافدون السحنة السوداء قليلاً أو كثيراً وشيئا من العادات ، كما طاردوا عدداً كبيراً من السكان وردوهم إلى الجنوب ومن ثم إحتفظ جنوبي السودان بطابع سكانه الأصليين كما كان عهدهم منذ آلاف السنين ، مع شئ يسير من التقدم ، ظهر فى المدن التى أنشأها الغزاة من قديم وإلى اليوم وحوالى هاتيك المدن (١) » .

على أن هناك بعض الأجناس التى إستوطنت السودان كبعض الأتراك الذين دخلوا بعد فتح السلطان سليم سنة ١٥٢٠ ، والمصريين الذين جاءوا إليه قبل فتح محمد على وبعده واتخذوه مقاماً ، والأباش من مسلمين ونصارى .

وطبعي أن يحدث هذا الإختلاط والتزاوج وتبادل المعرفة فعلته فى تكوين الأجيال التى عقبته حيث تجرى فى العروق دماء مختلفة وتتمازج وتتفاعل ، وحيث تتغلغل فى النفوس طباع متنوعة متألفة تارة ومتنافرة أخرى . وقد ينتج ذلك تفوقاً لأمثله له وذكاء نادراً وشجاعة قاهرة ، كما قد يحدث إنحطاطاً عقلياً وغباء وجبناً وكم يعجبني فى ذلك قول صالح عبد القادر :

وانا ابن وادى النيل لوفشتني
تجدين حلم البيض جهل السود

تجدين فى بردى بأس أسود
تجدين حلم البيض جهل السود

(١) تاريخ السودان لعبد الله حسين ج ١ ص ١٧ .

ويروى فى ورد الحدود ولفتة الر
وبلدى حلو الحديث وطيبه
ثم المهضف وإتسام الغيد
وسماع شادية ونعمة عود (١)

يدل ماضى هذه البلاد البعيد أنها إتصلت بمصر الفرعونية إتصالاً وثيقاً، تارة تغزو مصر وتغزوها مصر أخرى، وآونة يتهادنان ويتبادلان المنفعة من ثقافة وتجارة. « ولقد قامت فى السودان قبل الفتح الإسلامى مملكة أثيوبيا حيث كانت تمتد من الشلال الأول عند أسوان الى أقاصى الحبشة شمالاً وجنوباً، ثم إنقسمت أثيوبيا العليا المعروفة الآن بالحبشة وأثيوبيا السفلى فى شمالها ومن أشهر عواصم أثيوبيا السفلى « نينته » عند جبل البركل ومروى عند الجراوية . وقد عاصرت هذه المملكة القراعنة والبطالسة والرومان الذين حكموا مصر على التوالي، وأخذت من حضاراتهم جميعاً وتأثرت بهم كما أثرت فيهم ، ويرتبط تاريخ النوبة لإرتباطاً وثيقاً بتاريخ مصر، حتى ليصح القول بأن كلاً منهما متمم للآخر ، فإن وحدة الأصل والوطن والدين قد احكمت بينهما أوامر القرني والحوار ، فإذا هما شعب واحد فى أماله وآلامه على الرغم من إختلاف الإقليم والمناخ (٢) » وقد قامت على آثار مملكة أثيوبيا التى زال حكمها فى سنة ٦٤٠ قبل الميلاد مملكة النوبة على النيل بين الشلال الأول والحبشة، ومملكة البجسه فى الصحراء الشرقية . أما النوبة فقصد صارت نصرانية فى القرن السادس للمسيح، وأما البجسه فقد إحتفظت بالوثنية حتى الفتح الإسلامى لمصر فى سنة ١٨ هجرية و ٦٤٠ ميلادية فاعتنق البجسه الإسلام وعملوا بتعاليمه . ثم تم الفتح العربى للنوبة السفلى سنة ٧١٧ هجرية واتحدوا مع الفونج فى جنوبى سنار ففتحوا النوبة العليا سنة ٩١٠ هجرية فعم الإسلام وأخذ مكان الوثنية والنصرانية .

ومن هنا ترى أن هذا السودان فى ماضيه القديم قد تأثر بالثقافة الفرعونية وثقافة البطالسة وهى فى جملتها ثقافة يونانية وثقافة الرومان كما تأثر بالثقافة العربية أولاً عن طريق الهجرة وأخيراً عن طريق الغزو والفتح . ولقد تأثر بديانات وثنية وأخرى سماوية فقد عرف عبادة الشمس وغيرها من ديانات قدماء المصريين وعرف النصرانية بتعاليمها وطقوسها، كما عرف الإسلام الخفيف بمساواته وتسامحه وعدالته وطهارته . وكل هذه لها أثرها عن طريق الوراثة فى الأجيال المتعاقبة . وعقل الإنسان لو كان حراً يختار ما يريد لما إختار غير طريق الخير ولكن هذا العقل خاضع لما يرثه من خصائص كما هو خاضع

(١) مجلة الفجر مجلد ٢ عدد ١١ صفحة ٢٢٠

(٢) تاريخ السودان لعبد الله حسين ج ١ - ص ٤٥ .

لما يكتسبه من معلومات وهذه الوراثة كما تظهر في العقل تظهر في الجسم والخلق على السواء .

على اننا ينبغي ألا نعطي عنصر الوراثة أكثر مما يستحق لأنه وإن كان من الواجب الاعتراف بنظرية الوراثة فإنه ليس من الحكمة أن نكون خاضعين كل الخضوع لما يقال عن أثرها، لأن مقدار ماتقدمه الوراثة من تعطيل لتفائلة التقدم أو مساعدة لها لا يدريه أحد حتى ولا على وجه التقريب، ولا يظهر أثر الوراثة في الفرد بوضوح كما يظهر في الجماعات، لأن بنت الجميلة لا يلزم أن تكون جميلة كأمها كما أن ابن الذكي لا يتحتم أن يكون كأبيه ذكياً . وحسبنا أن نؤمن لحظة بأن تراث هذه الثقافات المتعاقبة والديانات وصنوف الحكومات التي مرت بهذه البلاد عملت كثيراً وتعمل على تكييف الحركة الفكرية فيها وتوجيهها صوب المرمى الذي يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها .

وليس العجب في ماضي هذه البلاد البعيد وحسب وإنما في ماضيها القريب وحاضرها كل العجب . فقد خضع السودان للحكم التركي في عهد محمد علي في عام ١٨٢٠ ميلادية وكان ضمن تلك الإمبراطورية العربية التي كان يحلم محمد علي بتكوينها (١) ولكن العهد التركي كان أظلم العهود على السودان ثقافياً لولا بيوتات العلم والدين والأفراد القلائل الذين شقوا طريقهم إلى الأزهر الشريف أو حرصوا على تلقي العلوم على يدي بعض الأساتذة العائدين من الأزهر الشريف لما بقي في السودان شيء من التراث العربي . ولما كان ذلك العهد عهد ظلم وقتك ونهب وتقهقر في الأخلاق ، كان من الضروري قيام ثورة في البلاد لأن النفوس مهما خمدت لا بد أن يثيرها الظلم ويلهبها هناك الأعراض وإستباحة المحارم؛ فجماعت الثورة المهديّة في عام ١٨٨٣ وعمت البلاد، وقضت على الحكم التركي ونال السودان الإستقلال مدى ١٦ عاماً حتى تمّ الفتح الأخير على يدي المصريين والإنجليز في عام ١٨٩٨ وابرمت الإتفاقيّة الثنائيّة لحكم السودان على النظام القائم الآن من الحكم المشترك .

على أن الغزو والحروب الداخليّة لم تترك لحكومة المهديّة فرصة للعناية بالحياة العقلية والأدب، ولكن البلاد لم تعدم حفنة من الحفاظ والدراس والعلماء الذين حافظوا على البقية الباقية من تراث الأدب العربي ، وكنت تسمع الفينة بعد الفينة قصائد الأمداح

(١) بقظة العرب بخروج انطونيوس ص ٢٣

النبوية وقصائد الحث على الجهاد كما كنت تسمع المقدمات الغزلية الطللة الجيدة ترد في مطالع تلك القصائد كما تسمع بعض الإخوانيات في العتاب والملح والدعابة .

ولست في حاجة لأن أفيض في الحديث عن نتاج هذا العهد الخالي في هذا المكان فذلك سيكون لباب هذا البحث الذي امهد له بهذه النظرات الحافظة .

من كل ماتقدم نرى ان عقلية هذا الجيل الحاضر خلاصة حضارات متعددة متشابهة ومتنافرة وثقافات هي في الواقع الأساس لكل التراث الفكري الموجود في العالم . كما أنها وليدة عقائد دينية منها الوثني ومنها النصراني والإسلامي .

ولكن الأمر الذي لاشك فيه هو أن الثقافة العربية هي الغالبة أو على الأقل هي التي تستحوذ على لب القارئ وتتأثر بها عقليات الكاتبين، كما أن الدين الإسلامي الحنيف هو دين الأغلبية الساحقة في هذه البلاد وهو الدين الذي قبلته وتقبله قبائل الجنوب الوثنية بسرعة مذهشة ويتجاوب مع طبائعها ولاغرابة في ذلك فهو دين القطرة « ان الدين عند الله الإسلام » وانه ليجمّل بي أن أعقد فصلاً خاصاً عن أثر الثقافة العربية والدين الإسلامي في العقلية السودانية تماماً للبحث وتقرباً من المرمى النهائي الذي يجب أن تتجه صوبه الحركة الفكرية في هذه البلاد حتى تأتي بالفائدة المطلوبة وتحقق آمال المخلصين المتفانين من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

-٣-

يرجع تاريخ الإسلام في هذه البلاد الى عام ٢٢ هجرية و٦٤٢ ميلادية، عندما ندب عبد الله بن أبي السرح على رأس عشرين ألف مقاتل لغزو النوبة ومنذ ذلك العهد أخذ الإسلام ينتشر في هذه البلاد وتقوى الدعوة اليه إلى أن تمّ الفتح العربي للنوبة السفلى في عام ١٣١٨ ميلادية وللتوبة العليا في عام ١٥٠٥ ميلادية فعم الإسلام وأصبح دين الغالبية الساحقة من سكان هذه البلاد .

وأثر الإسلام في هذه البلاد واضح ملموس تكاد تراه في الغدو والرواح وتلمسه في كل ما يصدر عنه أهل هذه البلاد . وحتى أمس القريب لا يمكن أن تنجح أية حركة لإحداث انقلاب أو تغيير بعض الأوضاع الا إذا كانت حركة دينية أو متشحة على الأقل بثوب الدين وما حديث المهديّة عنا بعيد . لقد كانت دعوة المهدي دعوة دينية تقبلها الناس بإسم الدين فثاروا في وجه المفسدين وأخرجوهم من بلادهم وإستولوا على الملك .

ولولا الدين لما رأيت الناس يموتون في سبيل الله ويستبسلون غير طالبين ثروة ولا جاهاً ولا مركزاً دنيوياً، بحمد الحى منهم من مات لأنه فاز بشرف الإستشهاد . وإن أمة يبلغ فيها أثر الدين كل هذا المبلغ لا يمكن أن تستسبح من الآراء مافية نزعة الحاد أو مافية خروج على الأوضاع والخلق المرعية ، كما أنها لا تقبل من مفكرها غير الصدق فى القول والإخلاص فى العمل وعفة اللسان واليد ونزاهة المقصد .

وفى كل مكان إنتشر فيه الاسلام لابد من إنتشار الأدب العربي والثقافة العربية فكتاب الله الكريم وستة رسول الله والحديث الشريف كل تلك باللغة العربية بل هى أصفى يتابع تلك اللغة . ولابد من دراستها وتفهمها وتدووقها فى لغتها الأصلية . والمسلمون حريصون كل الحرص على تفهم هذا التراث وتدووقه وعلى التقرب من روح الدين بدراسة اصوله وإتباع أحكامه . ولهذا فقد كان من حظ السودان إنتشار اللغة العربية بين ربوعه أولاً لذبوع الإسلام بين أهله وثانياً لأن الدم العربي هو الغالب على سكانه . ولقد بقى السودان حتى الفتح الأخير فى سنة ١٨٩٨م بعيداً عن أثر اللغات الأفرنجية ولم تسمع فيه من اللغات العجمية غير التركية وذلك بعد فتح محمد على فى سنة ١٨٢٠م وحتى تلك اللغة التركية لم تكن لغة الدولة الرسمية ولم تكن لتدرس فى المدارس إنما كان يتخلتها الحكام الأتراك فيما بينهم .

وليس عجباً أن كانت لغة أهل السودان وخاصة فى البادية أقرب اللغات الى اللغة العربية الفصحى ، وليس عجباً ان نجد أهل السودان يميلون الى شعر الحماسة والفخر سواء فى أغانيهم أم فى شعرهم ، ويتعشقون ضروب الفروسية ويتصفون بالكرم والأريحية وحماية الضيف ورعاية الجار ، ويرفعون عن الدنايا ولا يقبلون المذلة ولا تطيب نفسهم للإنكسار ، فالرجل منهم مهما أصابه الفقر لا يندس نفسه بمذلة السؤال ولا يرضى ان يتخلف عن الواجب العام .

وأثر الدين الإسلامى والثقافة العربية فى هذه البلاد أظهر ما يكون فيما وصل إلى أيدينا من مخالقات الجيل الماضى من الأدباء أمثال الشيخ حسين الزهراء والشيخ الضريب والشيخ أبى القاسم أحمد هاشم والشيخ البناء الكبير ، فقد كان معظم قصائدهم فى المذائح النبوية وذكر شمائل الرسول وتاريخ غزواته وإنتصاراته كما كانت تشتمل على بعض قصائد الفخر والحماس والحث على الجهاد . وكل قصيدة من تلك القصائد كانت تستهل بالغزل الرقيق على طريقة العرب القدماء . وليس هذا كل ماخلفه أبناء الجيل الماضى فقد

خلفوا نوعاً من الأدب على طرافته لم يخفل به المثقفون منا ، ولكنه فى الواقع أدب رائع فريد فى بابهِ وأعنى به قصص المولد النبوى الشريف الذى يقرأ فى حلقات الأذكار ، وإذا أسعدك الحظ بقراءة مولد السادة التجانية الموسوم «إنسان الكمال» أو الإستماع إلى قراءته فأنت بلاشك واجد فيه أدباً رائعاً وقصصاً جميلاً ومتسقاً وآيات من اليسان والمحسنات البديعية . وقد قدم له المرحوم الشيخ محمد هاشم بمقدمة هى آية من آيات البيان فى لفظها ومبناها ومعناها ، ذلك كله أثر الدين الإسلامى والأدب العربي فى حياتنا وذلك الأثر لا يزال باقياً وقويماً ولا يزال مؤثراً فى أذهان الناس القارئين منهم والكااتبين . وزاد فى هذا الأثر إتصالنا بمصر بعد الفتح الأخير ، لأن مصر بدورها لاتزال خاضعة لأثر الدين الإسلامى والثقافة العربية رغم ماينتابها الآونة بعد الأخرى من نزعات الرجوع الى الفراعنة أو التعلق بأهداب الغرب .

انه لزام علينا ألا نغفل هذا الأثر ونحن نحاول توجيه الحركة الفكرية فى هذه البلاد وحرى بنا أن نتقف عند هذا الأثر هذه الوقفة الخاطفة على أقل تقدير . وإني لأقرر فى تأكيد زائد أن أثر الدين الإسلامى والثقافة العربية سيطر ملازماً لحركتنا الفكرية ما بقيت هذه البلاد وما قامت فيها ثقافة وحركة فكرية ولكن هذا الأثر بلا شك سيكون عرضة للتفاعل مع المكتسب من الآراء الحديثة والأفكار الغربية وسيخضع كلاهما الى جو هذه البلاد وما توجيه جغرافيتها وطبيعتها من أفكار وتخييلات . ولهذا لابد لنا من التحدث أولاً عن أثر الثقافة الغربية فى بلادنا وثانياً عن جو هذه البلاد وجغرافيتها وطبيعتها وأثر كل ذلك فى هذه الحركة الفكرية التى نحاول أن نرسم لها مثلاً أعلى وأن نوجهها صوب المرمى الذى يريد لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

الإتفاقية الثنائية المبرمة بين الحكومة البريطانية وحكومة خديوى مصر فى عام ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان فى المستقبل التى جاءت معاهدة التحالف والصدائة بين بريطانيا ومصر فى عام ١٩٣٦ مؤيدة لها غربية فى نوعها وهى التى يقول عنها السير «هرلد مكمايكل» فى كتابه السودان الإنجليزى المصرى : «بهذا الشكل ولد السودان الجديد وقد رزق قوة كافية للبقاء . على أنه كان بحكم الضرورة وليد مراعاة الظروف ، فإذا مات «الطفل» فى المستقبل وحل محله مخلوق سياسى جديد أقوى منه بنية بسبب كونه أقرب الى عالم الحقائق فليس لموجديه أن يبكوا مصيره . » وليس يدرى أحد بعد هل

لا يزال الطفل قوياً أم يختصر ليخلى المكان للمخلوق الجديد القوي ؟ ما من شك في أن محالفة الصداقة قد أعطت المولود بعض المقويات التي ستكفل بقاءه حقبة أخرى من الزمن .

ويرى المطلع على بنود الإنفاقية الثنائية أن ارجحية السيادة البريطانية ضمنت بحقيقتها في اختيار الحاكم العام والإشارة بعزله وهو الذي يسن القوانين في مجلسه وهو بلاشك يعمل على تنفيذ وجهة النظر البريطانية دون قيد ولا شرط . فالإنفاقية لم تنص على أى قيد ومن هنا كان أن فتحت المدارس وغلبت عليها الثقافة الإنجليزية وخاصة في القسم الثانوى والأقسام العليا ، ولم يكن من محيد من انتشار آداب اللغة الإنجليزية وآداب اللغات الأجنبية الأخرى المترجمة للإنجليزية بين جمهرة المتعلمين من شبان هذه البلاد . وقد ساعد على ذلك نشاط المطبعة الإنجليزية وكثرة إنتاجها في شتى الفنون والعلوم وفي كثير من أغراض الحياة العامة .

والجيل الجديد من أبناء هذه البلاد وخاصة من تخضعت عنهم ثورة عام ١٩٢٤ رأوا حاجتهم الملحة إلى زيادة معلوماتهم ، فكان أول خطوة خطوها أن أقبلوا على قراءة جل ما تخرجه المطابع المصرية : والأدب المصرى وإن كان عربي الثوب إلا أنه نتاج ثقافات غربية متنوعة ، فأنت تلمس أثر المدرسة الإنجليزية في كتابات العقاد والمازني كما تلمس أثر المدرسة الفرنسية في كتابات طه حسين وهيكمل وزكي مبارك . كما أقبل أولئك الشبان على دراسة بعض ما تخرجه المطابع الإنجليزية فهناك من الشبان من يتوفرون على دراسة العلوم الاقتصادية والسياسية ومنهم من يدرسون التيارات الحديثة في نظم الحكومات والأمم ومنهم من يتقصون الأساليب الأدبية والخطابية والحسنات اللفظية في تلك اللغات الأجنبية ويحاولون نقل بعض التعابير والأساليب إلى اللغة العربية شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أبناء هذا الشرق العربي .

وما من شك في أن الشاب السوداني وجد نفسه في حاجة ملحة إلى دراسة المعلومات العامة وخاصة ما يسمونه علم الموسوعات (Encyclopaedic Knowledge) فمن منا لا يطمح إلى قراءة موجز التاريخ لـ «ولز» ، أو علم الحياة لـ «ولز» و «ولده» و «جولييان هكسلي» ، ومن منا لا يريد أن يتوفر على قراءة موجز الآداب والفنون لـ «جون درنك ووتر» وصحبه وتاريخ المؤرخين للدنيا لناشره «همروث» وغيرها من الموسوعات ، كما أنه من منا لا يجد أتم المتعة العقلية في قراءة موجز أعظم كتب الدنيا فيتصل بكل العقول الكبيرة

عن كتب وتقدم له خلاصتها في سبعة مجلدات والله إننا جميعاً لنطمح إلى الورد من ذلك المنهل العذب ولا سبيل إليه إلا عن طريق اللغة الإنجليزية .

ولقد قطع الكثيرون منا شوطاً بعيداً في هذا المضمار وتأثروا بالأفكار الغربية والتضليلات الغربية وأخذوا يسمعوننا صدى ذلك الأثر في قصائدهم وكتاباتهم وأخذ القراء يستسيغون إنتاجهم ويقبلون عليه كما كانوا يقبلون في الماضي على نتائج المدرسة العربية للبحث . ولم يقف أولئك عند هذا الحد فأنهم بعد ما كانوا يقرأون الأدب المصرى والأدب الغربي في خشوع ويتلقون الوحي عنه ويحسبون أن كل ما يأتيهم من خارج الحدود خلو من العيب . أخذوا يتناولون ما يقرأون في الأدبين بالنقد والغربة ولا يقرأ أحدهم كتاباً إلا ويكون عنه رأياً وكثيراً ما يجهر بذلك الرأي على صفحات الجرائد والمجلات وبها تربت عند ادباء الشباب ملكة النقد، تلك الملكة الفاحصة الباحثة عن الحق أين تراءى لها والتي تهتم بتصفية الأدران وقطع الطفيليات وتعهد الجمال والقوة ومساعدة كل جميل ونبييل من الآراء والعواطف .

ولا عجب في أن تجد الثقافة الغربية سبيلها إلى بلادنا، فحياة الشرق والغرب أخذت في التقارب والتحاكك من قديم الزمن ولا تزال آخذة في التقرب إلى يومنا هذا . ذلك لأن تراث الإنسانية الفكرى تراث مشترك ولا تعرف دنيا الفكر الناحر والتنافر والدساتس التي تسود عالم السياسة والإقتصاد ، ولأن طرق المواصلات ووسائل نقل الأخبار والمعلومات وتقدم العلوم الطبيعية جعلت من السهل أن يتصل من في الشرق بأخبار الغرب وعلومه في لحظة ، كما هو من السهل على الغرب أن يتصل بأخبار الشرق وعلومه . ومادام غرض الإنسان المثقف الأسمى في هذه الحياة أن يسعى نحو الكمال الإنساني وأن يترك الدنيا خيراً مما وجدها عليه فلا بد من إتصال وثيق بين ثقافات العالم، ولا بد لكل بلد من الوقوف على ثقافات الأمم الأخرى غابرها والحاضر على أن تهضم تلك الثقافات وتستسيغها وتحولها إلى دم يجري في عروقها وتنتج بذلك ثقافتها الخاصة بها التي يتطلبها تكوين أهلها وخلقتهم ومزاجهم ولا بد لها من أن تحمل طابعاً يميزها .

لقد تأثرت هذه البلاد بالثقافة الغربية والإنجليزية منها بوجه خاص كما تأثرت بالثقافة العربية والمصرية منها بوجه خاص . ولكن لهذه البلاد طبيعتها وجوها وظروفها الخاصة التي لا بد أن تؤثر على الحركة الفكرية فيها وتوجهها نحو المرمى الذي يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

ثقافة الأمة تتأثر بالبيئة والأخلاق كما تتأثر طبيعة البلاد ، فطبيعة الأقليم وجوه وما يجدر به من مؤثرات بعيدة الأثر في تكييف أخلاق السكان . فرجل الصحراء لا بد له من أن يتحلى بالصدق والوفاء ليصدقه الآخرون ويوفون معه فيخلق بذلك جواً من الوفاء والصفاء يكفل له مقاومة صعاب الصحراء والتجول في فيافيها أمناً من سغب أو غدر ، وساكن الجبال صعب المراس شجاع مقدام ، والساكن على ضفاف الأنهار حيث الخضرة والحصب والجمال لا بد أن يكون رقيق الطباع تستهويه الحدود الندية والفتات الساحرة والنعيمات الحنونة . وليس عجباً أن تسمع في نتاج رجل الصحراء مافيه لفحة من وهج الصحراء وفيه تمنيات الظامئ المحروم إلى العيون المتفجرة والجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، ولا عجب في أن تسمع في نتاج الرجل الجبلي المفاخرة بالشدة والبأس والتطلع إلى القمم والوثوب إلى كل صعب المنال . ولا بد أنك سامع الوصف الرائع للجنات النضرة والأزاهير اليانعة وحفيف الحداويل وتغريد الطيور في نتاج الرجل الذي عاش على ضفاف النهر في خصب ورغد من العيش .

والسودان بلد مترامي الأطراف فيه صحارى لا يجدها البصر وفيه جبال منها الشاهق الأشم ومنها المتوسط الارتفاع ولكنه منيع لا يمكن تسلقه وفيه بقاع على ضفتي النيل كثيرة الحصب فياضة باليمن والبركات ، وفيه أجزاء واقعة على ساحل البحر الأحمر في الغالب غير مأهولة وفيه غابات وأدغال ووحوش ووعول . يتمتع القسم الشمالي منه بشمس ساطعة وقمر فضي مثلاً فيفيض أحياناً على تلك القرى النائمة الساهية فيرسل إلى من فيها الحياة والشوق والحنين فيلبون داعي الحياة والشباب والحب فتقوم حلقات من الفتيات والشبان تغنى وترقص وتنسى لحظة هموم الحياة وتسيح بما لبديع خلق الله من آيات بينات . ويكاد القسم الجنوبي يتحرق شوقاً إلى رؤية الشمس والقمر مدى أشهر من السنة حيث السحب الكثيفة والأمطار الغزيرة، ولكن ذلك القسم فيه من جمال الطبيعة وخصب الأرض ما ينسى الناس الشمس ودفأها والقمر وسحره .

والسودان أرض خصب حيث يجرى النيل ويهيم الغيث وأرض اجذاب حيث لا نيل ولا مطر ، فقره مدقع وسكانه قليلون منتشرون في هذا الفضاء الشاسع من بيد وفيات وجوههم كالخة من لفحة الشمس المحرقة وأفاضت عليهم صبغة الله بتفضل الورثة وطبيعة

هذه البلاد الحجارة السوداء آونة والسمار أخرى وإنك لو وجد الفينة بعد الفينة صفرة تسمى اليهود الذهب .

ولهذا فحنن قوم شدة كجبالنا وكرب كصحرائنا، في طباعتنا جد لأن الحياة لم تبسم لنا كما تبسم لغيرنا من عباد الله . عندنا كرم حاتمى كفيض النيل المبارك يأتي بالحصب من أعماق الحيشة ليقتذف به على دلتا النيل عند البحر الأبيض المتوسط . تسفر المرأة في البادية وتتحجب في المدن . رجالنا جوابو أودية طلاعو ألوية ألفوا الغابات والأدغال والوحوش فأصبحوا لايهابون الإقدام على المخاطر وعكست سماوتنا الصافية الساحرة صراحتها على نفوسنا فصارت في طباعتنا صراحة قل أن نجد لها في غيرنا .

ولقد جعل ترامى أطراف البلاد من العسير إدارتها ونشر التعليم فيها بسهولة فكان طبيعياً أن نجد بيننا الجهلاء الذين لا يزالون يؤمنون بالخرافات وأحاجى الغول والسحرة ويعتقدون في « الكجور » ، كما أن بيننا من عرفوا الحياة حق المعرفة وتأثروا بما يتأثر به شباب القرن العشرين من النظريات العلمية فيحدثون عن نظريات التطور والحادية والنسبية وموجات الأثير كما يتحدث عنها رصفاؤهم في البلاد الغربية أو الشرقية المتمدنية .

وهذا الإختلاف وحده قمين بأن يجعل تخيلات أهل هذه البلاد وأمانهم وأحلامهم غير تخيلات وأمانى وأحلام الأمم الأخرى، وحوادثها وأخلاق أهلها وتقاليدهم غير حوادث وأخلاق وتقاليدهم الأخرى . وبدهى ان يكون لكل ذلك أثر في تكوين الحركة الفكرية في هذه البلاد وتوجيهها نحو المرمى الذي يريد لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

علينا أن نتقف لبرى نتاج تلك الحضارات المتعددة والديانات المختلفة والدماء المتداخلة والثقافات التي تعاقبت على هذه البلاد من فرعونية ويونانية ورومانية كما نرى نتاج الثقافة العربية قديمها والحديث، ونتاج هذه الثقافة الغربية الدخيلة ، وأثر هذه البلاد المتنوعة الأجواء والظواهر .

لغة التعبير والإفصاح في هذه البلاد هي لغة الضاد، وحتى هذه اللحظة لم يصدر في بلادنا من أدب بغير هذه اللغة العربية . وتطور اللغة العربية في هذه البلاد وإن كان مختلفاً بعض الشيء عن بلاد الشرق العربي الأخرى إلا انه مسير لها في جميع أطواره .

فلقد كان النثر المتعارف في هذه البلاد حتى الفتح الأخير في عام ١٨٩٨ هو السجع أو ماشابه من لغة الكتابة التي تكثر فيها المترادفات والمحسنات اللفظية والبديعية ويغلب عليها الإهتمام بالحرس أكثر من الإهتمام بالمعنى وتحديد الغرض . والسودان في ذلك كغيره من امم الشرق ، فهذه سوريا ولبنان وما جاورهما إستمرت على ذلك النوع من السجع حتى زمن الشيخ نصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) والشيخ بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) ولاغرابية في ذلك لأن نصيف اليازجي لم يكن ليجد الكتب مطبوعة ميسورة ، وكان لا بد له من الرجوع الى المخطوطات المحفوظة في بعض المكاتب الخاصة ومكاتب الرهبان ، ولما كان له من الإسم والحرص على المعرفة ، فقد وجد سبيله إلى تلك المخطوطات ممهداً ، فأخذ يقبل عليها يحفظ ما يراه هاماً منها عن ظهر قلب وينقل بخط يده ما لا يستطيع حفظه ، واستطاع بذلك أن ينفذ إلى الضائع من التراث العربي وأن يزيح عنه النقاب ، ومنذ ذلك الأوان أصبح شغله الشاغل إحياء ذلك التراث ، وقد انتهت في نفسه عواطفه العربية فكان رائد حركة البحث التي ظهرت في أيامه والتي كانت النواة الأولى لإحياء اللغة العربية . وقد إستعان رجال الإرسالية الأمريكية بمواهبه في وضع كتب مقررات النحو والمنطق والخطابة والبيان والبديع وظلت كتبه رديحاً من الزمن خير عون للأساتذة والطلاب . ولم يكن جهد بطرس البستاني بأقل من جهد صاحبه فقد ترجم كثيراً عن اللغات الأجنبية ، كما ساعد على ترجمة الإنجيل وكفاه فخراً أنه صاحب معجم محيط المحيط ، ومعجم قطر المحيط ، وصاحب دائرة معارف البستاني التي أنجز منها ستة مجلدات قبل موته في عام ١٨٨٣ ولقد مات الرجل بالسكنة القلبية في الليل عندما كان يعمل في دائرة معارفه ، وقد وجد مسطحاً على أرض حجراته وقلمه في يده وأكداً من الكتب على قمطره . وخير عمل قام به البستاني تأسيس بعض المجلات الأدبية كمجلة الفنان التي أسسها في عام ١٨٧٠ وكانت مجلة أدبية وسياسية الغرض منها التفاهم والإتحاد من أجل الصالح الوطني العام وكان شعارها « الوطنية ركن من أركان الإيمان » وقد ساهم في تحريرها والكتابة إليها كثيرون من كتاب الشرق العربي وسوريا ولكنها كانت تستمد قيمتها من قلم صاحبها ومن قوة عزمته ومما كان يرمى إليه من توجيه الأفكار وتكوين الرأي العام في شيء من التسامح وسعة الأفق .

ولقد تمخضت هذه الحركات الأدبية عن نوع من النثر لم يكن من قبل مألوفاً وظهر الى عالم الوجود هذا النثر المرسل الذي لا كلفة فيه سوى إفصاح عن الغرض في

اسلوب عربي فصيح في أقل عدد ممكن من الكلمات السهلة المألوفة ولقد إحتضنت مصر هذه النهضة الحديثة وأعطتها من العناية الكاملة ما جعل الأسلوب العربي يندو ويرعرع ويساير مثيلاته من لغات أوروبا الحديثة في مرونته وسلامته . ولقد ساعد على إحياء اللغة العربية في تلك البلاد ومعها الحركة الفكرية التي في برهة وجيزة إنقلبت من حركة ادبية إلى حركة سياسية ساعد عليها تأسيس مطبعة عربية في القسطنطينية في سنة ١٨١٦ وأخرى في القاهرة في عام ١٨١٦ وهي المعروفة حتى الآن بمطبعة بولاق ، كما تأسست بعد ذلك بوقت وجيز مطبعة الأمريكان في بيروت ومطبعة الآباء اليسوعيين في عام ١٨٤٧ فقد زودت هذه المطابع العالم العربي بكثير من الكتب العربية القديمة التي لم توجد حتى ذلك الأوان إلا في مخطوطات محفوظة في بعض المكاتب العامة أو الخاصة .

وكان للأساتذة المصريين والسوريين الذين أتوا هذه البلاد بعد الفتح للتدريس في المعاهد الحكومية أكبر الفضل في إنتشار آداب اللغة العربية وتعميم اسلوب النثر الحديث . ولا يزال الناس يذكرون بالفخر والإعجاب وبالشكران الزائد ما قام به أمثال الشيخ عبد الرؤف سلام والشيخ فؤاد الخطيب وغيرهما من أساتذة ذلك العهد .

ولكن الأسلوب العربي في مصر والشام لم يبق على ما كان عليه في القرن التاسع عشر بل دخله كثير من التحسين في الصياغة وفي طريقة البحث وكان أن ظهر على المسرح الأستاذ أحمد لطفي السيد وصحبه وطلبته على صفحات الجريدة ، كما قد أشرقت بعد ذلك شمس الجامعة المصرية بنهجها الجديد وأديها ، فاتحفت البلاد العربية بالدكتور طه والدكتور زكي مبارك والدكتور هيكل ، كما أشرقت شمس عبقریات لا يرجع فضلها إلى دراسة جامعية ولكن إلى جهود شخصية جبارة أمثال العقاد والمازني . لقد تأثر الجيل الجديد في السودان بدراسة هؤلاء وغير هؤلاء وأخذت تلمح تحسينات في الأساليب وتدقيقاً في البحث وإشراقاً في الدباجة في أساليب أبناء هذا الجيل ، وأول مظهرت آثارهم الأدبية على صفحات مجلتي النهضة والفجر وعلى صفحات مجلة المرأة كما ظهرت على صفحات الجرائد السيارة ما أختفى منها وما بقي وإن أنسى لن أنسى فضل الحسين وعرفات على هذه النهضة الأدبية الحديثة فقد ظهرت أقلامهما قوية مثرقة عندما كانت الأقلام محطمة خامدة وإنطلقت تجر الصحف وتوجه الرأي العام .

ولكن الرجل المخلص لا يسهه إلا أن يلاحظ في ألم وأمل ان هذه البلاد لاتزال متأخرة عن القافلة العربية ، ولاتزال في حاجة إلى كتاب ناثرين يجمعون بين قوة الفكرة

وإتساقها وجمال الأسلوب وسلامته، يتطعون للدراسات الأدبية والتأليف ويخرجون من الكتب ما يحمل طابع هذه البلاد ويضيف إلى خزانة المعرفة العالمية، وليس ذلك بكثير على بلاد تعاقب عليها ماتعاقب من الحضارات وإنتشر بين ربوعها ما إنتشر من الثقافات هي عصارة أمم مختلفة ونتيجة ثقافات متباينة، عرفت الوثنية والمسيحية والإسلام وغلبت عليها أخيراً الروح العربية وعمها الدين الإسلامي الحنيف وتمتعت بقطر مختلف الأجواء والمظاهر.

لا يزال هنالك مجال للإبتكار والتجديد فهناك في هذه البلاد تربة عذراء لم تطرق بعد. هنالك الدراما والقصة الطويلة والقصة القصيرة. هنالك تاريخ هذه البلاد برمته يحتاج إلى من يحققه ويغريه وينفي عنه مالمصقه به الأجانب والمغرضون من المؤرخين ويكتبه في نسق علمي صحيح ولغة عربية سهلة وجميلة. هنالك البحوث العلمية والبحوث السياسية التي يجب أن توجه هذا الشعب التوجيه الصحيح نحو حريته وإستقلاله كل هذه تنتظر المخلصين المتفانين من أصحاب المثل العليا من أبناء هذه البلاد البررة.

- ٧ -

لم يكن حظ الشعر بأحسن من حظ النثر وإن سبقه، لأن الشعر الذي كان معروفاً في هذه البلاد حتى إلى ما بعد الحرب العظمى لم يكن سوى مدح ونسب ورتاء، ولم يعد الألفاظ والأوزان، وهو في جملة نظم أكثر منه شعراً، مواضيعه من العتيق البالي، ولو لاما كنا نسمعه الفينة بعد الفينة من إستنهاض الهمم وإستدكار بعض مجد العرب والإسلام في بعض القصائد التي تلقي في رأس السنة الهجرية أو في المولد النبوي الشريف لقلنا على شعرنا العفاء.

ولكن كما تأثر النثر بالنهضة التي ظهرت في الشام ومصر كذلك قد تأثر الشعر وظهر جبل جديد من الشعراء.

إن عرق الشعر حتى نابض في قلب كل سوداني، فذلك الراعي الذي يضرب مزماره في الفلوات وفي الليالي القمرية فيرجع الفضاء نغماته والذي طالما أثار في النفوس لآعج الشوق والحنين وأعاد إليها ذكر غرام قضى وعهد دثر، دليل تلك الشعاعية المتمكنة من النفوس. والجندى السوداني حاذق في فن الموسيقى يقيد كل لحن يسمعه من حفيف الشجر وتغريد الطيور وخرير المياه ونغمات البشر وهذه الحاسة الموسيقية

- ٢٢٤ -

الدقيقة دليل على دقة الإحساس ورقة الشعور المتأصلة في طبيعة النفوس ودليل قاطع على أن هذه البلاد شاعرة مغرية بالشعر فإن ما يكسوها من البساطة وما يهيم عليها من الهدوء وما يكتنفها من الغابات على شواطئ النيل وما يغطي سماءها من السحب وأرضها من الخضرة في فصل الخريف وما فيها من السهول المنبسطة والوديان الحصية والتلال الرملية والجبال الممتدة والنخيل المتعاقب لجدير أن يبعث في النفس شعراً غاصاً بالجمال. وإن ما فيها من المآسي والمضحكات وما يمر بها من إحن وآلام وماتسمو إليه من مجد وعمران لميدان تسبح فيه الأفكار وتجيش العواطف فيبتكر الشاعر وينتج ماشاء له الإنتاج.

ولكن أين نتاج ذلك ؟

أين أثر هذا الجمال الطبيعي والكوارث الإجتماعية والعبر التاريخية ؟

لقد تأثر الجيل الجديد من الشعراء بخطوات مصر والشام ولكن في الوضع فقط لافى نهج التشكير والتأثر بالمواضيع المحلية من وصف وإجتماع وتاريخ، فالجيدون من شعراء هذا الجيل يحسنون الغزل وغير المجيدون نظامون فحسب.

مواضيع الشعر الجيد في هذه البلاد كثيرة فانظر إلى تلك الملاحم التي تخلد الغزوات والحروب في تاريخ السودان وقبائله التي نظمها بعض المغنين في الدوبيت، وأنظر إلى تلك القصص الغرامية أمثال قصة تاجوج التي إذا وجدت من يأخذها ويهذب من وحشيتها ويضع فيها من الخيال ما يكسبها رونقاً فنياً ويضعها في شعر رصين لكانت مثاراً لإعجاب الأمم الأخرى بشعرنا وإهتمامها بأدبنا. وطبيعة السودان وما فيها من حسن في حاجة إلى من يعبرها لساناً ناطقاً يفصح عنها ويصورها للناس في شعر جزل جميل حتى يفهموا ما لهذا البلد من حسن فنان، فشعر الملاحم والأوبرا وشعر الوطنية من تخليد للبطولة وتصوير لجمال البلاد كل تلك في إنتظار المخلصين المتفانين من أصحاب المثل العليا من أبناء هذه البلاد البررة.

وشعراء هذا البلد ينقصهم التوفر على فنهم والإضطلاع بصعاب البحث والتنقيب قبل العمل وينقصهم الإطلاع على منتجات شعراء الغرب للوقوف على أساليبهم وطرائف بحثهم حتى يجيء شعرهم جديراً بالخلود مع نظائره من شعر هذا العصر فهم يحسبون أن الموسيقى في الشعر هي الوزن واستقامته، وفات معظمهم أن تناسب الألفاظ مع بعضها وجمال رنينها الذي تحدثه في الأذن ومخارجها كل ذلك له أثره في الموسيقى. إن خير الشعر ما كان أحسن الألفاظ في أحسن نظام.

- ٢٢٥ -

وهذا النقص سهل إصلاحه ويحتاج إلى جهود الشعراء والنقاد الذين يوجهون الشعراء ويختارون النماذج الصالحة منهم للبقاء حتى تتجه الحركة الفكرية في هذه البلاد والشعر بوجه خاص صوب المرمى الذي يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبناء هذه البلاد البررة .

- ٨ -

هذه هي الحركة الفكرية عندنا حتى الآن . وهذا هو مستقبلها يطالعنا من خلال هذا الإستعراض لماضي هذه البلاد وحاضرها ولما تستوجهه طبيعة الأشياء فيها وما توحيه من مثل أعلى لهذه الحركة الفكرية المنشودة .

فما هو المثل الأعلى الذي يجب أن تسير نحوه هذه الحركة الفكرية ؟ وكيف السبيل الى ذلك ؟

المثل الأعلى للحركة الفكرية في هذه البلاد أن تكون حركة فكرية تحترم شعائر الدين الإسلامي الحنيف وتعمل على هداية وان تكون عربية المظهر في لغتها وذوقها مستلهمة في كل ذلك تاريخ هذه البلاد الماضي والحاضر مستعينة بطبيعتها وعادات وتقاليد وأخلاق أهلها متسامية بكل ذلك نحو إيجاد أدب قومي صحيح وتقلب فيما بعد هذه الحركة الأدبية إلى حركة سياسية تؤدي إلى إستقلال هذه البلاد سياسياً وإجتماعياً وفكرياً .

هذا هو المثل الأعلى لمرمى الحركة الفكرية في هذه البلاد ويبدو في ظاهره قصياً ومعجزاً والسبيل إليه وعرة تحتاج إلى جهود الجبايرة وعمل الأجيال، ولكن المثل الأعلى لايعرف التوسط ولابد فيه من الكمال ، فلنوضح مثلنا الأعلى ولنرسم طريق الوصول إليه فلن تعدم هذه البلاد من يضطلع بعبء النهوض به من المخلصين المتعلمين من أصحاب المثل الأعلى من أبناءها البررة .

لا بد لإستكمال حركتنا الفكرية من إستيعاب التراث الإسلامي العربي وليس الجهد الذي ينتظرنا في ذلك كجهد الشيخ نصيف اليازجي وصحبه، لأن التراث الإسلامي العربي قد طبع من هذه المؤلفات في مصر والشام، وليس علينا إلا أن نكب على دراسة ذلك التراث الإسلامي العربي دراسة دقيقة تقوم على التمهيص والنقد والمقارنات المتداخلة حتى نستفيد الفائدة الكاملة من ذلك التراث .

- ٢٢٦ -

ورب سائل يسألني وكيف السبيل إلى دراسة ذلك التراث العربي الإسلامي وإستيعابهم الوحي منه؟ فأقول إن الدراسة لايعرف غير الإنكباب والتحصيل، وعلى الذين يريدون منا أن يحبوا ذلك التراث وأن يستقوا منه خير المعلومات وأن يتسلحوا بأقوى سلاح عليهم أن يقبلوا على دراسة الموسوعات العربية أمثال الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ووفيات الأعيان للقاضي ابن خلكان وصبح الأعشى للقلقشندي كما عليهم أن يقبلوا على دراسة اصول الأدب العربي كالكامل المبرد وأدب الكتاب لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ وغير ذلك مما لايدخل في عداد، وبهذا يستطيعون ان يفهموا روح الأدب العربي الإسلامي ويتفروا على خدمة لغة الأجداد وعلى إستيعاب المادة . وما الأدب في جملته إلا مادة واسلوب فالمادة هي ما يعالجه الادباء من موضوعات تختلف باختلاف الزمان والمكان والأسلوب هو الطريقة التي تعالج بها تلك الموضوعات .

لا بد لمن يريد أن يتخذ الأدب صناعة له من تنقيف، وذلك ليلم بخلاصة الآراء عند من تقدمه من الأدباء ومن عاصره منهم وليرى ما وصل إليه سلفه ومعاصروه من الأدباء وليرى ما بين نفسياتهم ونفسيته من شبه أو إختلاف، وليصلح ما أساءوا فقهه من أسرار الحياة وليتم مبادئها بناءه من الأفكار الكبرى، كما لا بد له من أن يسن سبيله في الحياة ويكون فكرته عنها ويوجد طريقته المثلى التي يجب أن يسير عليها في الإفصاح عن أدبه لذلك كان لزاماً على الأدباء في هذه البلاد أن يقرأوا الأدب المصري المعاصر كما يقرأوا الأدب الغربي المعاصر . والأديب الذي لم يقرأ للرافعي وطه وهيكل والمازني والعماد وزكي مبارك من أدباء مصر، أو لم يقرأ لكتاب المقالة في القرن الثامن عشر في إنجلترا أمثال «ماثيوارنولد»، و«هازلت»، و«لام»، و«لى هنت»، و«روبرت لوى ستيفنسن»، كما يقرأ للمعاصرين من الأدباء أمثال «ولتر»، و«اليوت»، و«جون درنكوتر»، و«الدوس هكسلي»، ويقف على ترجمة بعض مؤلفات الفرنسيين من أمثال «أدولف تين» . و« فولتير » : و«روسو»، و«أندريا موروا»، ليس بالأديب الذي يستطيع أن يضطلع بأعباء النهوض برسالة الحركة الفكرية في هذه البلاد وتوجيهها نحو المثل الأعلى الذي يريده المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبناءها البررة .

لهذا كان لزاماً على أدبائنا وشعرائنا أن يلموا بالكثير من الأدب العربي الحديث في مصر وجاراتها من بلاد الشرق العربي كما يلموا إلماماً حسناً باصول الأدب الغربي ويطالعوا على الحديث منه بوجه خاص قبل أن يحاولوا الإنتاج الأدبي الثمر الذي يريده لهذه البلاد

- ٢٢٧ -

المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة . لا بد لنا من دراسة أرسطو و «هومر» ، و «فرجيل» ، و «دانتى» ، كما لا بد لنا من دراسة «شكسبير» ، و «جيتى» ، و «هوجو» ، ودراسة المعاصرين من الأدباء الغربيين قبل أن نحاول إنتاج أدب نرضاه ليمثل امتنا التمثيل الصحيح .

إذا إستكملنا هذه العدد فلنتقدم نحو بلادنا ندرس تاريخها ونجوب أنحاءها لتتعرف شبابها المختلفة ونقف على مواطن الحسن فيها ونتقرب من شعبنا، نعرف عاداته وتقاليده ونعرف مايتفشى فيه من خرافات وغباء وامتغلغل في صميمه من كرم وأريحية وحب للخير فنصور كل ذلك في أدبنا تصويراً صحيحاً ونفصح عن آلامنا وآمالنا ونوحد أغراضنا ونهيب بقومنا إلى النهوض من عثرتهم لإيجاد أدب قومي صحيح ينقلب من حركة أدبية إلى حركة سياسية تتوج جهودها بنيلنا إستقلالنا السياسى والإجتماعى والأدبى وليس الى ذلك من سبيل إلا بإنهاض الأدب عامة والأدب القومى خاصة . ولك ان تسألنى هنا :

كيف ينهض الأدب ؟

كيف ينهض الأدب القومى ؟

- ٩ -

ينهض الأدب بتربية الروح في أفراد الشعب ودفعهم إلى القراءة واستيعاب مايقروا ونفهمه فهماً دقيقاً ولايمكن أن يقبل عامة الشعب على القراءة والإستيعاب والفهم إلا بمجهود الجيايرة من محبى الأدب الذين تتقد فيهم شرارته والذين يودون صلاحه . وجهود هؤلاء الجيايرة تنحصر في تهذيب الأذواق وتحسين مقاييس الأدب وحماية ذماره وذلك بأن لا يكتبوا الا ما كان جميلاً ممتبساً من المثل الأعلى للكمال ، وألا يقبلوا سواء من نفايات الأدباء ، وأن يكون هناك نقد نزيه صارم يحمى ذمار الأدب من الدخلاء والطفيليات ولا يكون أدب أولئك المخلصين جديراً بالخلود إلا إذا كان مبنيًا على التجارب والملاحظة والإستنتاج الصحيح ، وإلا إذا كان مليئاً بالعاطفة النبيلة الملتهبة التى يكبح جماحها العقل ويضمن لها البقاء والإستمرار ويهذب من وحشتها لتكون غذاء صالحاً لا يعقبه تعسر فى الهضم ولا توعلك فى الصحة . ويزين كل ذلك علم عزيز ، ومعرفة شاملة للضرورى من الأصول التى تترتب عليها إستقامة الذهن الإنسانى والمنطق الصحيح . كل ذلك فى اسلوب سلس كنتجوى المحيين لايقطع إنسيابها إلا هصر راح براح وتساعد الأنفاس وقد تلاقت الشفاه بالشفاه .

- ٢٢٨ -

ولا بد لنهوض الأدب من إيجاد الجمعيات الأدبية والمجلات والصحف السيارة التى تنطق بأسم تلك الجمعيات ولا بد من وجود الصداقات الفكرية التى يربط بين أفرادها توحيد المثل الأعلى وتقارب المشارب وتوحيد المرمى . أما الجمعيات الأدبية ومجلاتها فأثرها فى تقدم الآداب واضح فى هذه البلاد وفى غيرها ، فخذ مثلاسوريا ولبنان تجد ان نهضة الآداب فيها ترجع إلى جمعيات أدبية ثلاث : الأولى أستستها الإرسالية الأمريكية فى بيروت فى عام ١٨٤٢ بمساعدة نصيف اليازجى وبطرس البستاني ، وقد بلغت الجمعية أشدها فى عام ١٨٤٧ وسميت جمعية الفنون والعلوم ، وكان منها تقرب للشباب من روح الأدب الغربى ومساعدتهم على تفهمه ، وقد كانت للجمعية مكتبة متواضعة وكانت تلقى فسى إجتماعاتها محاضرات دورية فى كل خمسة عشرة يوماً مرة ، وكان عدد أعضائها خمسين لم يكن بينهم مسلم ، وقد كانت هذه أول جمعية من نوعها فى البلاد العربية ، لأن الجهود المشتركة لترقية العلوم والفنون لم تكن معروفة فى الشرق العربى الذى يعتد فيه الفرد بنفسه حتى ذلك الأوان (١) . ثم كان ان أسس الآباء اليسوعيون جمعية كذلك فى عام ١٨٥٠ سميت الجمعية الشرقية حذو سابقتها ولكنها أيضاً لم يكن بين أعضائها مسلم .

لقد إختفت الجمعيتان وقامت على أنقاضهما جمعية ثالثة تأسست فى عام ١٨٥٧ وكانت أكبر من سابقتها ، وإمتازت عليهما بأن كان كل أعضائها من العرب ، وان إلتسع عضويتها للمسلمين والدروز والمسيحين على السواء . انها نتاج دعوة اليازجى للعرب أن يوحدوا كلمتهم على إختلاف عقائدهم فى سبيل خدمة اللغة العربية ، وجهود البستاني وحملاته لإزاحة كل الحواجز التى كانت تفصل بين العربى وأخيه العربى ، وقد سميت الجمعية العلمية السورية ، ولقد إعترفت بها السلطات فى سنة ١٨٦٨ وضمت عضويتها بعض الشخصيات البارزة خارج سوريا وخاصة فى الأستانة والقاهرة ، ولأول مرة فى تاريخ سوريا توحدت العقائد المختلفة والأحزاب المتناينة حول غرض واحد ومثل أعلى مشترك فكان الأدب السبيل إلى إيجاد جمعية غرضها الأسمى إستقلال بلادها وفخارها بالتراث العربى حبل إتصالها . لقد كان تأسيس تلك الجمعية أول مظهر من مظاهر الشعور القومى وأصبحت أهميتها فى التاريخ أنها حجر الأساس للنهضة السياسية فى تلك البلاد .

وطبيعى أن يكون بين أعضاء تلك الجمعية من تربط بينهم صداقة فكرية قائمة على المحبة والغرض الموحد والمثل الأعلى المشترك ، وأولئك وحدهم هم الذين لعبوا الدور الأسمى

(١) بقظة العرب لجورج انطونيوس

- ٢٢٩ -

في نجاح الحركة الأدبية والسياسية من بعدها، ففي إحدى الجلسات السرية لتلك الجمعية ارتفع أول صوت من أصوات النهضة العربية حيث التقى الشيخ إبراهيم اليازجي قصيدة وطنية مطلعها «تنهوا وإستقيقوا أيها العرب» على ثمانية من أصدقائه من أعضاء الجمعية. وكانت القصيدة إيقاعاً للمجد العربي حيث تغنى الشاعر بما شاده الشعب العربي النبيل من الأعمال وما خلفه من التراث والفخر وأشاد بعظمة الأدب العربي وأهاب بالعرب أن يتأثروا خطى أجدادهم وأن ينسجوا على منوالهم؛ ولقد ندد الشاعر بالتحزب والتعزات والتناحر في سبيل شهوات بعض من يحلو لهم أن يستروا تلك الشهوات وراء المعتدات الدينية، ناداهم بأن الدين لله والمجد للوطن. ولقد فتح العيون إلى معائب الحكم التركي ودعا مواطنيه إلى إزالة ذلك السلطان العاشم. وزاد في روعة القصيدة أنها كانت في لغة ملتبية واسلوب سلس وألقاها صاحبها في صوت متهدج.

لم يكن من الحكمة ان تكتب تلك القصيدة وتنتشر، ولكن تكفل الأصدقاء بحفظها ونشرها شفاهاً بين الناس، وماهى إلا أيام وشهور معدودة حتى دوت القصيدة في كل البلاد العربية ينشدها الرجال في دورهم والشباب في الأندية والطرقات، وكانت هذه القصيدة الشرارة الأولى ليقظة العرب، دون أن يعلم أحد في ذلك الأوان عن الشاعر ناظم تلك الدرّة الفريدة.

هذا عمل الجمعيات الأدبية في سوريا ولبنان أما في مصر فحسبى أن أذكر في الماضي جماعة الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وفي العصر الحاضر جماعة الترجمة والتأليف والنشر. وعمل الجمعيتين في سبيل النهوض بالأدب والثقافة وخدمة الحركة الوطنية معروف لدى الجميع. ولقد إستعانت الأولى ببعض جرائد أذكر منها العروة الوثقى، كما إستعانت الثانية على مهمتها بمجلة الثقافة.

أما عن أثر الجمعيات الأدبية ومجالاتها والصدقات الفكرية في هذه البلاد فحسبى أن أذكر أثر جماعة الفجر وجماعة أصدقاء مدني، فالأولى أوجدت مدرسة في الأدب لها طابعها الخاص ونفخت في بوق الحركة الوطنية مرات ودوت صحتها موقفة في كثير من ميادين الحياة، وهاهو تراها بين أيدي الناس لهم أن يقلبوه ويحكموا لها أو عليها. أما الثانية فقد تمخضت في إحدى جلساتها عن فكرة مؤتمرا العتيد وعاونتها في ذلك مجلة الفجر ونادى الخريجين بام درمان وتمخضت في جلسة أخرى من جلساتها عن فكرة المهرجان الأدبي، وأقامت أول مهرجان أدبي في هذه البلاد. هذا عمل جمعيتين أدبيتين

ربطت بين أفرادهما الصداقة الفكرية توحدت أغراضهم ومثلهم العليا فعملوا مخلصين متفانين في سبيل أمتهم. فكيف إذا كثرت هذه الجماعات وإتسعت عضويتها وتعددت أغراضها، لاشك في ان النتيجة ستكون توجيه الحركة الفكرية في هذه البلاد نحو المرمى الذي يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبناء البررة.

العطف الشامل والحق الرصين وإنكار الذات هي عماد الصداقة الفكرية يعززها النوق الأدبي السليم الذي يمكن صاحبه من تفهم غيره من الأدباء والمفكرين وتقديرهم والعطف عليهم وإنها لاحتاج إلى كثير من التضحية والإيثار، ولهذا لا تتوفر خصائصها إلا عند القليلين من رجال الفكر الذين يصبحون حلقة وصل بين أدباء عصرهم ومفكره ويعملون على وصل ما انقطع بينهم كلما دبت الخصومات وإشتدت. وهؤلاء الأفذاذ يخدمون عصرهم ويهيئون للأدباء والمفكرين الجو الصافي لتبادل الآراء والسعي وراء المثل الأعلى والتسامي بالإنسانية نحو الكمال.

ولكن ماذا تفيد الجمعيات الأدبية والصداقة الفكرية في إنهاض الأدب إذا إنعدم الناشر الأدبي. لانهاض الأدب نهوضاً صحيحاً لا بد من إيجاد الناشر الأدبي الذي يشجع الأدباء ويقبل على نشر منتجات أفكارهم فيغيرهم زيادة الإنتاج. لم تعرف بلادنا حتى الآن الناشر الأدبي. فالمطابع التي عندنا مطابع تجارية وليس بين أصحابها من يعطف على الأدب والأدباء ويتعهد ثمرات الكتاب والشعراء بالطبع والنشر. وإلى ان يوجد الناشر الأدبي أو تتألف عندنا جمعيات أدبية لذلك الغرض فلا يمكن أن يزدهر الأدب في هذه البلاد. ولقد عمل بذلك الأديب الاسكتلندي الذائع الصيت و«ولتر اسكت» عندما أراد النهوض بالأدب القومي في إسكتلندا فأسس شركة للنشر الأدبي وقومها بدخله من القضاء وتمن بعض مخطوطاته التي باعها لبعض الناشرين، وبذلك إستطاع الرجل أن ينهض بالأدب في بلاده، ولولا ماتكبده من خسارة في شركة النشر لأثرى من دخله من القضاء وموئلاته، لكنه كان أديباً مخلصاً لفنه ووطنه فلم يعبأ بالثروة.

فهل لهذه البلاد من المثريين من أبناءها من يقوم بهذا العبء فيساعد على نهوض الأدب وتوجيه الحركة الفكرية نحو المرمى الذي يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبناء هذه البلاد البررة.

بقى علينا ان نعرف ماهى مقومات الأدب القومى وكيف السبيل إلى ايجاده .

إذا إستقصينا تاريخ حركات نهوض الأدب القومى فى كل الأمم نجد أنه يتوقف أولاً على إحياء لغة الأجداد وبعثها والتعصب لها، ويرى المطلع على تاريخ الأدب الأنجليزى أن الناس كانوا حتى عهد «تشوسر» يكتبون باللاتينية أو بلغة فرنسية تتورها كلمات إنجليزية غير مستقيمة . وكان ان قام «جون ويكيليف» وتلامذته بنقل الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية وقد ظل حتى الآن مرجعاً لغوياً ينجح به . وقد نظم «تشوسر» قصائده باللغة الإنجليزية السليمة فجاءت برهاناً على انتقال أمة من عصر لعصر وشعورها بكرامتها القومية وتمجيدها للغتها وتلمسها روح تلك اللغة وميزتها . ثم جاء «شكسبير» بفنه وأدبه الغنى الخالد .

ولابد للأدب القومى قبل أن يزدهر إزدهاراً صحيحاً من تشجيع القائمين بالأمر من ملوك وحاكين وإجزال العطاء للأدباء المنقطعين لأدبهم وتصوير مشاعر أهل البلاد والإفصاح عن آمهم وآمالهم . وفى بلد كبلدنا هذا لايزال تحت الحكم الأجنبى لايمكن أن يظفر الأدب القومى بتشجيع القائمين بالأمر إلا إذا كانت الشخصيات التى تشرف عليه وتعمل لإحيائه شخصيات قوية لها مكانتها المرموقة بين أبناء الشعب وخطرها عندالحاكين وكان الحاكين أنفسهم من أرباب الثقافة العليا المهتمين بالأداب المتفانين فى سبيل خير الإنسانية والذين يرون أن تحقيق ذلك الخير رهين بإزدهار ثقافات العالم أجمع والتقاءها عند ذلك الغرض المشترك مع إحتفاظ كل واحدة منها بطابعها المحلى وميزاتها الخاصة .

ولابد لإزدهار الأدب القومى من قيام المسرح الذى تمثل فيه روايات من وضع أدباء البلاد، تصور حياة الشعب وتشخص أدواؤه وتصف الدواء، وهذا يحتاج إلى جهود جبارة الفن والمؤلفين وتعاونهم، كما يحتاج إلى معونة الحكومات وعطفها الشامل من رعاية وتخصيص للجوائز .

وهناك خطوة تكون دائماً بمثابة التمهيد لإيجاد الأدب القومى ، ألا وهى الترجمة من اللغات الأخرى لروائع الأدب قديمها والحديث، على أن تكون ترجمة دقيقة يتوفر عليها كبار الأدباء الحاذقين لغتهم حذقهم للغة التى ينقلون عنها . ولقد قامت لجنة الترجمة والتأليف والنشر فى مصر بمجهود طيب فى هذه الناحية، كما أنه ليس عجيباً أن نسمع فى

هذه الأيام أن الأستاذ العقاد مكب على إخراج ترجمة رسمية لمؤلفات شكسبير فما تلك إلا خطوة من الخطوات لإحياء الأدب المصرى القومى .

والشعراء لهم اليد الطولى فى إحياء الآداب القومية فهم الذين يتغنون بجمال البلاد ويشيدون بمجدها وهم الذين يفصحون عن آلام الشعب وآماله وتحيلاته ويصورون عبقرية الجليل وينفخون فى الصور ليعثوا من فى القبور ويحركوا الهامدين من أبناء جلدتهم ليسيروا نحو المرمى الذى يريده للبلاد المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة .

كما تقدم نرى ان الأدب القومى يتوقف على الأسلوب والمادة. أما الأسلوب فيجب ان يكون بلغتنا العربية الفصحى، يعثره الآونة بعد الأخرى بعض مصطلحات بلادنا المحلية، لأن تلك الإصطلاحات هى التى فى الغالب تميز أدب أمة من أدب غيرها، فليس عجيباً أن نسمع فى خطابات الزعيم الراحل سعد زغلول باشا « دى خبطين فى الرأس توجع » وغيرها من الأمثال والنكات المصرية، لأنه مصرى قبل أن يكون عربياً يمت إلى جامعة الشرق العربية وليس عجيباً أن نسمع فى السودان بعض الأدباء يدخلون فى كتاباتهم « الحسنة معطت شارب الأسد » أو « العجلة من الشيطان » و« من الآبرى وكفى » وغيرها من الأمثال المسموعة، وأما المادة فيجب ان تكون من وحى البلاد وطبائع وعادات أهلها .

اذن لايمكن أن ينهض الأدب القومى فى هذه البلاد إلا بإحياء اللغة العربية، لغة الأجداد، ولايكون ذلك الإحياء إلا بالتوفر على دراستها كما أشرنا فى فصل سابق كما أنه لايفيد ذلك الإحياء وحده إلا إذا لقيت تلك الحركة تشجيع الحاكين، ولايمكن ان ينهض الأدب القومى فى هذه البلاد إلا اذا أقمنا دعامة المسرح المحلى وغذيته بأفلامنا، كما لابد لإزدهار الأدب القومى من أن تتوفر بعض الصفوة المختارة من أدبائنا على الترجمة من اللغات الأخرى الرفيع من آدابها .

ومثل هذا العمل يحتاج إلى جهود الجبارة من أبناء هذه البلاد المشغولين بالأدب والمشغولين بالإجتماع والسياسة على السواء، فهل لهذه البلاد من ينهض بأدبها القومى ويسير به نحو المرمى الذى يريده لها المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبنائها البررة !

الآن وقد تتبعنا الحركة الفكرية فى هذه البلاد من أقدم العصور حتى يومنا هذا

كتب عربية

الزمرة	اسم الكتاب	إسم المؤلف
١	معجم المصطلحات القانونية	الدكتور سعيد محمد أحمد المهدي
٢	مؤلفات معاوية محمد نور (الجزء الأول دراسات في الادب والنقد)	الاستاذ معاوية محمد نور
٣	الضرائب في السودان	الدكتور علي أحمد سليمان
٤	نحو الغد	الاستاذ محمد أحمد محجوب

كتب عربية تحت الطبع

١	الحركة الفكرية في المهديّة	الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم
٢	مؤلفات معاوية محمد نور (الجزء الثاني قصص وخواطر)	الاستاذ معاوية محمد نور
٣	طبقات ود ضيف الله	تحقيق الدكتور يوسف فضل حسن
٤	المهديّة في دارفور	الاستاذ موسى المبارك
٥	سالي فو حمر وقصص من افريقيا	الاستاذ جمال محمد أحمد
٦	نماذج من الأدب الزنجي الامريكي	الاستاذ علي الملك
٧	تاريخ الصحافة في السودان	الاستاذ محجوب محمد صالح
٨	دبلوماسية محمد	الدكتور عون الشريف
٩	القصة الحديثة في السودان	الاستاذ مختار عجوبة
١٠	الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة	الدكتور عبد القادر محمود
١١	الأرض الأثمة	ترجمة الأستاذين صلاح أحمد ابراهيم وعلي الملك
١٢	بعانجي	ترجمة الدكتور متوكل أحمد أمين
١٣	مصادر الدراسات السودانية	الاستاذ قاسم عثمان نور
١٤	البحر القديم «شعر»	الاستاذ مصطفى سند
١٥	أفق وشفق «شعر»	الاستاذ توفيق صالح جبريل

ورأينا مامر على هذه الأمة من أحوال متباينة وما تعاقب عليها من الحضارات وما أعتقه أبناؤها من الديانات والمعتقدات ورأينا الثقافات التي أدخلت إليها أو إحتكت بأهلها ورأينا أن هذه البلاد ومن فيها نتاج دماء منها الزنجي ومنها العربي كما منها التركي والحبشي، ووليدة ثقافات منها الفرعوني ومنها العربي القديم والحديث كما منها الغربي ورأينا أنها عبت مع قدماء المصريين آلهتهم وإعتنقت المسيحية رداً من الزمن ثم إتخذت الإسلام الحنيف دينها الذي لاتبغى به بديلاً بقى علينا أن نرى ماهو المثل الأعلى الذي يجب أن تتجه نحوه الحركة الفكرية في هذه البلاد .

المثل الأعلى الذي يجب أن تتجه نحوه الحركة الفكرية في هذه البلاد هو أن تكون لها ثقافة إسلامية عربية تسندها ثقافة غربية مكتسبة وأن تتأزر جميعها لخلق أدب قومي صحيح يتخذ مادة فنه القصصي من أخلاق أهله وتقاليدهم وينظم شعره ويوقعه على الوتر الحساس لأبناء هذه الأمة فيصنف لهم مناظر غاباتها وتلاؤ القمر الفضي في صحاريها وخصب وديانها وغزلان كتابها ويجد في كل ذلك مادة لفنه التصويري كما يجد في نشاعر أهله وإحساساتهم وحركاتهم وسكونهم مادة لموسيقاه وأن يهتم بكتابة تاريخ هذه البلاد كتابة تحبب الناشئين في بلادهم وتشعرهم بأن عليهم واجباً نحو أرض الأجداد وأن يتوفر دعاة هذا الأدب على البحوث السياسية التوجيهية وبذلك تنقلب هذه الحركة من نهضة أدبية إلى نهضة سياسية تكون نتيجتها إستقلال هذه البلاد سياسياً وإجتماعياً وفكرياً هذا هو مثلنا الأعلى

حفاظ على ديننا الإسلامي ، وتمسك بترائنا العربي ، مع تسامح شامل ، وافق فكري واسع ، وطموح يجعلنا تقبل على دراسة الثقافات الأخرى ، كل ذلك لنحيا أدينا القومي ونثير شعورنا بوطينتنا لنصل إلى حركة سياسية لن ينكرها علينا أحد لأن طبيعة الأحياء توجبها ، والمرمى الذي نسير نحوه هو إستقلالنا سياسياً وإجتماعياً وفكرياً . هذا هو مثلنا الأعلى .

ويجب أن نسير نحوه وأن نكتاتف في تحقيقه ، وكل عمل لا يكون إستقلال هذه البلاد مرماه عمل غير صالح فيها ياشباب هذا الجيل ، وياقادة الرأي فيه ، لنعمل سواً لوضع هذا المثل الأعلى ، نعمل على تحقيقه ونموت نحن ويأتي من بعدنا جيل آخر يعمل على تحقيقه فذاك حلم الأبد وعمل الدهور وإلى مثل هذا فليعمل المخلصون المتفانون من أصحاب المثل العليا من أبناء هذه البلاد البررة .